وَأَنْـــتَ أَبَـــرُّ مَـــنْ لَـــوْ عُـــقَّ أَفْـــنَـــى
وَأَعْـفَـى مَـنْ عُـقُـوبَـتُـهُ الْـبَـوَارُ[١]
وَأَقْـدَرُ مَـنْ يُـهَـيِّـجُـهُ ٱنْـتِـصَـارٌ
وَأَحْـلَـمُ مَـنْ يُـحَـلِّـمُـهُ ٱقْـتِـدَارُ[٢]
وَمَـا فِـي سَـطْـوَةِ الأَرْبَـابِ عَـيْـبٌ
وَلَا فِـي ذِلَّـةِ الْـعُـبْـدَانِ عَـارُ[٣]

عيون حيارى

لما بلغ أبو الطيب إلى بسيطة رأى بعض عبيده ثوراً فقال: هذه منارة الجامع، ورأى آخر نعامة فقال: وهذه نخلة؛ فضحك أبو الطيب وقال:

[المتقارب]

بُـسَـيْـطَـةُ مَـهْـلاً سُـقِـيـتِ الْـقِـطَـارَا
تَـرَكْـتِ عُـيُـونَ عَـبِـيـدِي حَـيَـارَى[٤]
فَـظَـنُّـوا الـنِّـعَـامَ عَـلَـيْـكِ الـنَّـخِـيـلَ
وَظَـنُّـوا الـصِّـوَارَ عَـلَـيْـكِ الـمَـنَـارَا[٥]

= وهذا يعني وحدة النسب بينهما، فضلاً عن الجوار، وللجار حق على جاره في الرعاية والحماية وتبادل المنافع. ويأمل الشاعر أن يكون الخير في ذراريهم وأولادهم فيكونون جنداً وخولاً لأولاده وأحفاده؛ فالمهار من الخيول الجيّدة سوف تكون كباراً يُعتمد عليها.

(١) و (٢) أبرّ: أكثر إحساناً. عُقَّ: عُصي. البوار: الدمار. يُخاطب الشاعر ممدوحه مسترحماً مستنجداً بعفوه؛ إنه أكثر برًّا بالقوم وقد أخطأوا، فالعفو والصفح جزاء لمن أساء أعلى مستويات المغفرة، رغم أنهم يستحقون الهلاك، وقد قدر عليهم فأذلّهم، ومن قدر ولم يصدّق أنه انتصر على عدوّه تملّكه الغرور ونفخ فيه روح الانتقام فنكّل وشرّد بعدوّه. ولكن الأمير أقدر على العفو والصفح، وذلك أعلى مقامات الصفح والحلم.

(٣) يختم الشاعر قصيدته بمعادلة أن قدرة الأرباب العظام حقّ لهم لا عيب فيها إذا غفروا لعبيدهم ذلاتهم، ولا يعتبر ذلك عاراً في نظرهم.

(٤) و (٥) بُسيطة: موضع قرب الكوفة. لقد انتهت رحلة العذاب وعاد الشاعر إلى موطنه، وبسيطة أول محطة واجهته من معالم بلده، فخاطبها متمنياً لها الخير العميم وفيض =

فَـأَمْـسَـكَ صَـحْـبِـي بِـأَكْـوَارِهِـمْ
وَقَـدْ قَـصَـدَ الـضِّـحْـكُ فِـيـهِـمْ وَجَـارَا[١]

أرجانَ أيتها الجياد!

خرج أبو الطيب من الكوفة إلى العراق فراسله ابن العميد أبو الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة من أرجان فسار إليه وقال يمدحه:

[الكامل]

بَـادٍ هَـوَاكَ صَـبَـرْتَ أَمْ لَـمْ تَـصْـبِـرَا
وَبُـكَـاكَ إِنْ لَـمْ يَـجْـرِ دَمْـعُـكَ أَوْ جَـرَى[٢]
كَـمْ غـرَّ صَـبْـرُكَ وَٱبْـتِـسَـامُـكَ صَـاحِـبـاً
لَـمَّـا رآكَ وفـي الْـحَـشَـا مَـا لَا يُـرَى[٣]
أَمَـرَ الْـفُـؤَادُ لِـسَـانَـهُ وَجُـفُـونَـهُ
فَـكَـتَـمْـنَـهُ وَكَـفـى بِـجِـسْـمِـكَ مُـخْـبِـرَا[٤]

= مطر غزير؛ فعبيده لم يُصدّقوا أنهم عادوا إلى وطنهم، وهم في حيرة إذ رأوْا طلائع النجاة ممثلة بثور وقطيع من الأبقار تُوحي بالبيئة التي ينتمون إليها ونعاماً كأنهن نخيل؛ إنها عبارة تنم عن الفرحة والسخرية بآن معاً.

(١) الأكوار، الواحد كور: الرحل. جار: مال. ولقد أمسك غلمان الشاعر برحالهم، وهم يضحكون فرحين مسرورين، وبعضهم الآخر اقتصد بضحكه وهم منبهرون بما يُشاهدون.

(٢) بدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع وجداني غزلي، فعلامات العشق بادية عليه، والحبيب لا يكترث لما يُعانيه الشاعر من آلام الفراق والهجران؛ فالصبر وعدمه سيان لا يُفيد، فحتى البكاء لا يُفيد في حال انسكب أو لم ينسكب.

(٣) الحشا: ما اضطمت عليه الضلوع. المظاهر خادعة، فالصبر والبسمات تُخفي وراءها ما تُخفيه، والناظر يُفسّر ما يراه كما يحلو له لأنه لا يعلم ما في القلب من أحزان وآلام؛ فالحزن مغلّف بقناع كاذب خادع.

(٤) الفؤاد مركز القيادة ومكمن المشاعر، وها هو يقوم بدور القائد الآمر متخلياً ظاهرياً عن دوره الطبيعي، إنه ينساق مع رغبات الحبّ، فإذا به يأمر اللسان فيسكت، والجفون فتتوقّف عن التعبير بما يُعانيه القلب من الهيام والعشق، ولكن الجسد لم يُفلح بضبط النفس، فكان أن كشف عن حقيقة الأمر بنحوله وفتوره.